وجوب التوبة وفضلها

- وجوب التوبة وضرورتها .
- التوبة من النفاق .
- التوبة من الكبائر .
- التوبة من كتمان الحق .
- توبات الأنبياء فى القرآن .
- التوبة فى السنة النبوية .
- هل تجب التوبة من الصغائر ؟
- وجوب التوبة على الفور .

obeikandl.com

obeikandl.com

وجوب التوبة وضرورتها

التوبة من الذنوب التى يقع فيها المؤمن - وهو فى طريقه إلى الله - فريضة دينية لازمة ، أمر بها القرآن الكريم ، وحثت عليها السنة النبوية ، وأجمع على وجوبها العلماء جميعا : علماء الظاهر ، وعلماء الباطن ، أو علماء الفقه ، وعلماء السلوك ، حتى قال سهل بن عبد الله : من قال : إن التوبة ليست بفرض ، فهو كافر ، ومن رضى بقوله فهو كافر ، وقال : ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة ، وقد جهل الناس علم التوبة (١) .

التوبة فى القرآن :

ولقد عنى القرآن بالتوبة أبلغ العناية فى آيات كثيرة من سوره المكية والمدنية ، ستمر بنا فى مواضعها إن شاء الله .

توبوا إلى الله توبة نصوحا :

ومن أبرز ما جاء فى القرآن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

وهذا آخر نداء إلهى للمؤمنين فى القرآن، يأمرهم بالتوبة إلى الله توبة نصوحا :

---

(١) ذكره أبو طالب المكى فى (قوت القلوب) جـ ١ ص ١٧٩ .

(٢) التحريم : ٨ .

خالصة صادقة ، والأمر من الله تعالى فى كتابه العزيز يدل على الوجوب ، ما لم يصرف عنه صارف ، ولا صارف هنا ، وذلك ليكونوا على رجاء أمرين أو هدفين أساسيين ، يسعى إلى تحقيقهما كل مؤمن ، وهما :

١ - تكفير السيئات .

٢ - ودخول الجنات .

وكل مؤمن فى أمس الحاجة إلى هذين الأمرين : أن تكفر سيئاته ، وتغفر ذنوبه ، ولا يخلو إنسان من أن تكون له سيئات وذنوب بمقتضى التكوين البشرى ، الذى امتزج فيه عنصران مختلفان : عنصر طينى أرضى ، وعنصر روحى سماوى ، فأحدهما : يشده إلى أسفل ، والآخر : ينزع به إلى أعلى ، الأول يمكن أن يهبط به إلى حضيض الأنعام أو أضل سبيلا ، والآخر : يمكن أن يرقى به إلى أفق الملائكة ، وربما خير مقيلا .

من أجل هذا كان كل إنسان عرضة لأن يسىء ويذنب ، وكانت حاجته إلى التوبة النصوح ، لتكفير ما بدر منه من سيئات .

والأمر الآخر : دخول الجنات ، ومن ذا الذى يستغنى عن دخول الجنات ؟ فأهم ما يشغل المؤمن هو مصيره الأبدى ، هذه قضية المصير الأولى للإنسان : أينجو يوم القيامة أم يهلك ؟ أيفوز ويسعد أم يخيب ويشقى ؟ والنجاة والفوز والسعادة فى الجنة ، والهلاك والخيبة والشقاوة فى النار ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[1] .

توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون :

ومما جاء فى القرآن عن التوبة قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ . (٢) النور : ٣١ .

وفى هذه الآية أمر الله جميع المؤمنين أن يتوبوا إليه ، لم يستثن منهم أحدا ، مهما علا كعبه فى الاستقامة ، ومهما ارتقى فى سلّم المتقين ، فهو فى حاجة إلى التوبة · فمن المؤمنين من يتوب من الكبائر إذا ألمّ بها ، وهو ليس بمعصـــوم · ومنهم : من يتوب من صغائر المحرمات ، وقل من يسلم منها · ومنهم : من يتوب من الشبهات ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه · ومنهم : من يتوب من المكروهات · بل منهم : من يتوب من الغفلات تعترى القلوب.ومنهم : من يتوب من الوقوف عند حال أدنى ، حيث لم يرتق إلى ما هو أعلى ·

فتوبة العوام ، غير توبة الخواص ، غير توبة خواص الخواص ، ولهذا قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ! ولكن الجميع مطالبون فى الآية الكريمة بالتوبة لعلهم يفلحون ·

ويعلق صاحب القاموس على هذه الآية فى كتابه (البصائر) فيقول : هذه الآية فى سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان ، وخيار خلقه : أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم ، وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة (لعلكم تفلحون) تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجى ، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون ·

وقال بعض علماء السلوك : التوبة واجبة على الكل ، حتى الأنبياء والأولياء ، فلا تظن أن التوبة اختصت بآدم عليه الســلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) .

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس البشر ، لا يمكن فرض خلافه ، ما لم تتبدل السنة الإلهية التى لا مطمع فى تبديلها ، فالرجوع - يعنى التوبة إلى الله فى حق كل إنسان يكون ضروريا ، نبيا كان أو غبيا ، وليا أو غويا ، يقول أبو تمام :

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ ·

فلا تحسبن هندًا لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند !

ويشير إليه حديث « كلكم خطاؤون ، وخير الخطائين التوابون » رواه أحمد وغيره عن أنس . وكما أنها - أى التوبة - واجبة على الجميع ، هى واجبة فى كل حال ، أى على الدوام ، وذلك لعموم الأدلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا ﴾ وذلك لأن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه ، إذْ لم يخل عنها الأنبياء ، والأخيار ، كما ورد فى القرآن والأخبار من خطاياهم وتوبتهم وبكائهم .

فإن خلا أحد فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهم بالذنوب فى القلب ، فإن خلا عن الهم ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وبصفاته وأفعاله ،وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن الطريق إلى ضده ، وإنما يتفاوتون فى مقادير النقصان لا فى أصله [1] .

* * *

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون :

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ، وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2] .

فبعد أن نهى الله المؤمنين عن السخرية بعضهم ببعض - رجالا أو نساء -

---

(١) انظر : شرح عين العلم وزين الحلم حـ ١ ص١٧٥ وهو مختصر من(الإحياء) .
(٢) الحجرات : ١١ .

وعن لمز بعضهم لبعض بالطعن والتجريح ، واعتبر القرآن من لمز إخــوته المؤمنين كأنما لمز نفسه ، فالمسلمون كنفس واحدة ، كما نهى عن التنابز بالألقاب.فكل هذه الأمور تنقل الإنسان من درجة الإيمان إلى دركة الفسوق ، فبعد أن كان يسمى مؤمنا صار يسمى (فاسقا) وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، وهذا دليل على وجوب التوبة ، وإلا كان من الظالمين ، والظالمون لا يفلحون ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(١)ولا يحبهم الله: ﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) : ولا يهديهم الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) وهم الذين لا ينجــون من النار ﴿ وإِنْ مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٤) .

آيات أخر :

ومن آيات القرآن : ما رغب في التوبة، وحث عليها ، وبين فضائلها وآثارها ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المتَطَهِّرِينَ﴾(٥).

دعوة المشركين والكفار إلى التوبة :

ومن آيات القرآن : ما دعا أهل الشرك إلى التوبة ، وفتح لهم الباب للانخراط فى المجتمع المسلم ، واكتساب أخوته ، كما قال تعالى فى سورة التوبة بعد الأمر بقتال المشركين الناكثين للعهود : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦) ، ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾ (٧) .

كما دعا النصارى إلى التوبة من قولهم بألوهية المسيح أو أنه جزء من ثلاثة

(١) يوسف : ٢٣ . (٢) آل عمران : ٥٧ . (٣) المائدة: ٥١ .
(٤) مريم : ٧١ ، ٧٢ . (٥) البقرة : ٢٢٢ . (٦) التوبة : ٥ .
(٧) التوبة : ١١ .

أجزاء أو (أقانيم) تكوّن الاله ! ، وهو عبد من عباد الله ، جرى عليه ما يجرى على البشر ، وكان داعيا إلى عبادة الله وحده ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى اسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وربَّكُمْ ، إِنَّهُ من يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ ومَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا للظَّالمينَ منْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالثُ ثَلاَثَة ، وَمَا من إله إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وإن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ * أفلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

بل فتح الله الكريم باب التوبة للكفرة الطغاة الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وألقوا بهم فى أخاديد ﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ (٢) فقد قال تعالى بعد أن ذكر قصة هؤلاء المؤمنين ، وأنهم لم ينقموا منهم إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ثُمْ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحَرِيقِ ﴾ (٣) يقول الحسن البصرى معلقا على هذه الآية : انظر إلى هذا الكرم والجود : قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة !

حتى الردة - أي الكفر بعد الإيمان - تَقبل التوبة ، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالمينَ * أُولَئكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالمَلاَئكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فيهَا ، لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَهُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٤) .

---

(١) المائدة : ٧٢ - ٧٤ . (٢) البروج : ٥ - ٧ .
(٣) البروج : ١٠ . (٤) آل عمران : ٨٦ - ٨٩ .

obeikandi.com

التوبة من النفاق :

وكما دعا القرآن إلى التوبة من الكفر الظاهر المعلن ، دعا إلى التوبة من الكفر الباطن ، المغلف بإيمان اللسان ، وهو المعروف باسم (النفاق) وأهله هم (المنافقون) الذين يقـــولون : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا ﴾ (١) .

والتوبة من هذا النفاق لا تكون بمجرد إعلان الإسلام ، فهو معلن من قبل ، بل بأوصاف أربعة ذكرها القرآن فى سورة النساء ، فبعد أن وصفهم فى تلك السورة بما جلى حقيقتهم ، وكشف مستور دخائلهم: من ولائهم للكافرين من دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة﴿ بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ ، فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعًا ﴾ (٢) .

ومن تربصهم بالمؤمنين ، وإمساكهم العصا من الوسط بينهم وبين الكافرين . ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ، وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

ومن ذبذبتهم وخداعهم لله ولرسوله ، وكسلهم عن أداء فرائضه وغفلتهم عن ذكره : ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى ، يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٨ – ١٠ . (٢) النساء : ١٣٨ ، ١٣٩ . (٣) النساء : ١٤١ .
(٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

بعد أن جلى الله تعالى أوصاف المنافقين ، لم يغلق الباب فى وجوههم ، بل فتح لهم باب التوبة بشروطها ، وذلك فى قوله تعـــالى: ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

فمن تمام توبتهم أن يصلحوا ما أفسدوه بالنفاق ، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالناس ، وأن يخلصوا دينهم لله ، حتى يخلصهم الله لدينه ، وبذلك ينضمون إلى قافلة المؤمنين الصادقين .

وفى سورة أخرى يقول تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِه ، فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾[2] .

* * *

التوبة من الكبائر :

وكما ذكر القرآن التوبة من الشرك والنفاق ، ذكر التوبة كذلك من كبائر الذنوب ، مثل قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والزنى الذى جعله الله فاحشة وساء سبيلا ، وقد عطف القرآن هاتين الكبيرتين على أكبر الكبائر ، وهى الشرك ، فقال سبحانه فى وصف عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[3] .

---

(١) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ . (٢) التوبة : ٧٤ . (٣) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

ويلاحظ أن كثيرا من الآيات تتحدث عن الإيمان بعد التوبة ، وتعطفه عليها ، كما فى هذه الآية ،فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنَ يَكُونَ مِنَ المفْلِحِينَ ﴾[1] ، وقوله تعالى بعد أن ذكر جملة من رسله وأنبيائه وأتباعهم الأخيار الذين إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيا ، ثم قال : ﴿ فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَات ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾[2] .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾[3] فما سر هذا العطف : عطف الإيمان على التوبة ؟ والذى يظهر لى أن الإيمان يُخدش خدشا كبيرا باقتراف الكبائر ، حتى إن بعض الأحاديث النبوية لتنفى الإيمان عن مقترف الكبيرة حين يقترفها - كما فى حديث الصحيحين عن النبى ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

لهذا كانت التوبة إعادة أو ترميما لهذا الإيمان .

* * *

التوبة من كتمان الحق :

ومن الذنوب الكبيرة التى أشار القرآن إلى ضرورة التوبة منها : ذنب كتمان الحق وعدم بيانه للناس ، وهذا من ذنوب أهل العلم الذين يجب عليهم أن يبلغوا رسالات الله ، ويبينوا للناس حكم الله ، ويقولوا الحق ، ولا يكتموه عن الخلق ، كما فعل أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[4] .

---

(١) القصص: ٦٧ . (٢) مريم : ٥٩ - ٦٠ . (٣) طه : ٨٢ . (٤) آل عمران : ١٨٧

وذلك أنهم كتموا البشارة بمحمد ﷺ فى كتبهم ، وحرفوا وبدلوا ، من أجل متاع الدنيا ، الذى سماه الله (ثمنًا قليلا) كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٢) .

فانظر إلى هذا الوعيد الهائل البالغ لهؤلاء الكاتمين،الذى يتضمن العذاب المادى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾ ، والعذاب المعنوى : ﴿ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ﴾ والخسران فى صفقتهم ،فقد ﴿ اشْتَرُوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ ﴾ ، وما ذلك إلا لأنهم أضلوا عباد الله بكتمانهم الشهادة بالحق ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ﴾(٣).

من أجل هذا كانت التوبة مطلوبة طلبا مؤكدا من هؤلاء حتى ينجوا من هذا العذاب ، ومن لعنة الله ولعنة اللاعنين ، يقول سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الكِتَابِ ، أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

فاشترط فى قبول توبتهم : أن يصلحوا ما أفسدوه ، ويبينوا ما كتموه .

---

(١) النساء : ٧٧ . (٢) البقرة : ١٧٤ ، ١٧٥ . (٣) البقرة : ١٤ .

(٤) البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠ .

وإذا كان هذا جرم من كتم الحق ، فما بالكم بجرم من « شوَّه الحق » وحاول أن يجعله في صورة الباطل،ليصد الناس عنه ، ويزين لهم ضده ، بلسانه أو بقلمه ؟ لا ريب أن جرمه أعظم ، وذنبه أشد خطرا ، وهو ما يقع فيه كثير من الكاتبين والمؤلفين والصحفيين والإذاعيين والفنانين والخطباء ، وأمثالهم ممن يصنعون عقول الناس ، وميولهم واتجاهاتهم .

ولا تصح توبة هؤلاء بمجرد الندم والعزم ، بل لا بد أن (يصلحوا ويبينوا) ، لقد أفسدوا كثيراً من العقول والضمائر ، وضللوا كثيرا من الناس ، فعليهم أن يزيلوا أسباب هذا الإفساد من كتب أو أشرطة أو « أفلام » ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن لم يستطيعوا برئوا منها علانية في الصحف وغيرها من وسائل الإعلام الممكنة ، وعليهم أن يبينوا بوضوح : موقفهم الجديد ورجوعهم عما كانوا عليه من قبل ، في شجاعة ويقين [1] .

فضل التوبة والتائبين في القرآن :

وفي الحث على التوبة والترغيب فيها ، جاء قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [2] وأي درجة أعلى من درجة الحصول على حب رب العالمين ؟

وجاء في وصف عباد الرحمن الذين شرفهم الله بالانتساب إليه ، ووعدهم الجنة يلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقاما قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [3] .

وأي فضل أعظم من أن يقبل التائب عند الله، حتى إنه ليبدل سيئاته حسنات ؟

---

(١) كما فعل ذلك الدكتور / مصطفى محمود ، والأستاذ خالد محمد خالد وآخرون ممن هداهم الله .

(٢) البقرة : ٢٢٢ . (٣) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وفى بيان سعة مغفرة الله تعالى ورحمتـــه للتائبين يقـــول جل شأنه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

فهذه الآية فتحت الباب على مصراعيه لكل مذنب وخطاء ، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ، ثم تبتم لتاب الله عليكم » (٢) .

ومن فضائل التائبين : أن الله شغل ملائكته المقربين بالاستغفار لهم ودعاء الله تعالى أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم جنات النعيم وأن يقيهم السيئات ، فهم فى همومهم فى الأرض ، وحملـــة العرش مشـــغولون بهم فى السموات ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (٣) .

وجاءت آيات وفيرة فى كتاب الله تنبىء عن قبـــول توبة التائبين إذا صدقت توبتهم ، بأساليب شتى ، معللة بفضل الله تعالى ومغفرته ورحمته ، التى لا تضيق بعاصٍ ، وإن عظمت معصيته .

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هـــريرة ، وحسـنه فى صحيح الجامع الصغير (٥٢٣٥) .

(٣) غافر : ٧ - ٩ .

كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

﴿ وهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٢) .

وفى وصف ذاته سبحانه ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ (٣) .

وخصوصا من تاب وأصلح ، وبعبارة أخرى : من تاب وعمل صالحا كما فى قوله فى السارق والسارقة : ﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِه الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِه وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦) .

وجاء مدح الله تعالى باسمه (التواب) فى أحد عشر موضعا فى القرآن ، كما فى دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧) .

وكما فى قول موسى لبنى إسرائيل بعد عبادتهم العجل : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٨) .

وقال تعالى مخاطبًا رسوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (٩) .

* * *

(١) التوبة : ١٠٤ . (٢) الشورى : ٢٥ . (٣) غافر : ٣ .
(٤) المائدة : ٣٩ . (٥) الأنعام : ٥٤ . (٦) النحل : ١١٩ .
(٧) البقرة : ١٢٨ . (٨) البقرة : ٥٤ . (٩) النساء : ٦٤ .

توبات الأنبياء فى القرآن :

وقد ذكر لنا القرآن توبات أنبيائه وأصفيائه مما وقعوا فيه من زلات ، سارعوا بالندم عليها ، والتوبة والاستغفار منها ، عسى الله أن يغفرها لهم ، ويتقبل توبتهم .

وقدوة التائبين هو أبو البشر آدم عليه السلام ، الذى خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء كلها ، وأظهر فضله على الملائكة بعلمه ، ولكن آدم الذى نجح فى امتحان العلم والمعرفة ، لم ينجح (من الدور الأول) فى امتحان الإرادة ، فقد ابتلاه الله بأول تكليف منه ، وهو النهى عن الأكل من الشجرة : شجرة واحدة نهى عنها ، وأبيح له أن يأكل من كل أشجار الجنة رغدًا حيث شاء ، هو وزوجه ، وهنا ضعفت إرادته ، ونسى نهى ربه أمام وسوسة الشيطان وإغرائه ، فأكل منها ، ووقع فى المعصية ، ولكنه سرعان ما غسلها وطهر نفسه من آثارها ، بالتوبة والاستغفار : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) .

وذكر لنا القرآن توبة موسى الذى اصطفاه برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليه التوراة ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، وأيده بتسع آيات بينات ، وقد وقع منه ذنب قبل الرسالة ، وهو الحمية لرجل من شيعته استغاثه على رجل من قوم فرعون ، فوكزه موسى فقضى عليه ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

ووقع منه هفوة بعد الرسالة ، حين ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَانِى وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وهنا قال الله له : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ . (٢) القصص : ١٥ ، ١٦ .

(٣) الأعراف : ١٤٣ . (٤) الأعراف : ١٤٤ .

ولما رجع موسى إلى قومه من مناجاته لربه أربعين ليلة ، ووجد قومه قد عبدوا العجل الذى صنعه لهم السامرى ، واتخذوه إلها ، غضب غضبا شديداً ، وقال : بئسما خلفتمونى من بعدى ! وألقى الألواح التى فيها التوراة كلام الله ، ألقى بها فى الأرض من الغضب ، وفيها كلام الله ، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه ، وهو رسول مثله ، وأخوه يقول له : يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إن القوم استضعفونى، وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين .

هنا أحس موسى عليه السلام بما دفعه إليه الغضب ، وإن كان غضبا لله : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

وذكر لنا القرآن توبة نبى الله يونس عليه السلام ، حين دعا قومه إلى الله ، فلم يستجيبوا له ، فلم يصبر عليهم ، وغاضبهم ، وهجرهم مفارقا لهم ، فأراد الله أن يبتليه بمحنة تطهره ، وتبرز نفاسة معدنه ، ومدى يقينه بربه ، وصدقه معه ، فقد ركب فى سفينة ، فلما كانت فى عرض البحر ، هاجت بها الرياح ، ولعبت بها الأمواج ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، وقال الركاب : لا بد أن نخفف السفينة حتى لا تغرق بالجميع ، فلابد من أن يلقوا ببعض من فيها فى البحر ليفدى بقية الركاب ، وتم ذلك بالقرعة والاستهام ، وجاء السهم على يونس ، ولم يكن بد من التسليم والرضوخ ، فألقى فى البحر ، فالتقمه الحوت - أو النون - وهو مليم ، أى ملوم على مغاضبته لقومه ، ويأسه منهم ، وتركه لهم ، دون تكرار المحاولة ، وهنا تجلى يقين يونس ذى النون - أو صاحب الحوت - فنادى فى الظلمات التى يعانيها : ظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، بكلمات سجلها الكتاب الخالد ، القرآن حين لخص قصته بقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) .

---

(١) الأعراف : ١٥١ (٢) الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

كلمات ثلاث قصار نادى بها يونس لها دلالاتها العظيمة :

الأولى : تدل على التوحيد - توحيد الألوهية . الذى به بعث الله الرسل وأنزل الكتب ، وقامت به سوق الجنة والنار : ﴿ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنتَ ﴾ .

والثانية : تدل على التنزيه عن كل نقص ، وهو معنى التسبيح الذى تقوم به السموات والأرض وكل المخلوقات ،وإن من شيء إلا يسبح بحمده: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾.

والثالثة : تدل على الاعتراف بالذنب ، والتقصير فى حق الرب ، وظلم النفس بالتفريط ﴿ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا عنوان التوبة .

فلا عجب ان كان لهذه الكلمات الصادقة المخلصة أثرها العاجل الناجز فى الدنيا قبل الآخرة﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ،وَكَذَلِكَ نُنْجِى المُؤْمِنِينَ﴾(١).

وأصبحت هذه الكلمات بدلالاتها الثلاث : التوحيد والتنزيه والاعتراف : أسوة فى الابتهال والدعاء عند الكرب ، حتى جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه : « دعوة أخى ذى النون : ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه : لاَ إِلَه إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

وذكر لنا القرآن توبة داود عليه السلام ، فيما حكاه لنا فى سورة (ص) حين جاءه خصمان ، وتسورا عليه المخراب ، ففزع منهما ، فقالا : ﴿ لاَ تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٨٨ .

(٢) سورة ص : ٢٢ - ٢٥ .

ترى ماذا نفهمه هنا من خطيئة داود فى هذه القصة ، التى ظن أنها كانت فتنة ، وابتلاء له ، فاستغفر ربه ، وَخَرَّ راكعا وأناب :

الذى يبدو من ظاهر القصة : أنه عليه السلام تسرع ولم يتثبت ، واستجاب لداعى الانفعال بمجرد أن سمع كلام أحد الخصمين ، فبادر بالحكم على خصمه ، دون أن يسمع منه ، ويتيح له الفرصة للدفاع عن نفسه ، وما ينبغى للقاضى العادل أن يتأثر بكلام أى خصم أو بمظهره، حتى يحقق ويدقق ، ويسمع من كل الأطراف ، وتقوم لديه الحجة ، وتتضح له المحجة ، ولهذا قيل : إذا جاءك أحد الخصمين إحدى عينيه مقلوعة ، فانتظر حتى ترى خصمه ، فلعل عينيه مقلوعتان ! .

ومن هنا جاء الأمر الإلهى بعد ذلك لداود ينهاه عن التأثر بالعواطف والأهواء فى حكمه،وذلك في قوله تعالى:﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾(١) .

وهل كان هذا الخصمان رجلين من بنى آدم حقيقة أو كانا ملكين فى صورة رجلين ، عرضا عليه القضية امتحانا واختبارا ، ثم لم يلبثا أن اختفيا ، ولم يعرف لهما أثر ؟ .

أيا كان أحد الاحتمالين ، فالمغزى واحد ، ولا مبرر لاعتبار هذا من ضرب المثل ، وأنه تعريض بداود نفسه ، فى طمعه فى امرأة جاره ، كما تصوره الإسرائيليات المشوِّهة لصورة الرسل والأنبياء ، حتى نزلت بهم إلى درك يترفع عنه كثير من عامة الناس ، فكيف برجل سخر الله الجبال ليسبحن معه بالعشى والإشراق ، وقال عنه فى أول قصته : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقال فى آخرها : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

والآيات المتعلقة بالتوبة كثيرة فى القرآن ، وستأتى فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله .

* * *

(١) سورة ص : ٢٦ .

التوبة فى السنة النبوية :

وفى السنة النبوية نجد الأحاديث الوفيرة فى الدعوة إلى التوبة ، وبيان فضلها ، والترغيب فيها ، بأساليب شتى ، حتى إن النبى ﷺ قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليـــه فى اليـوم مائة مرة » [١] ، واكتفى ببعض ما ذكره الحافظ المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » واذكر أهم ما انتقيته منها فى كتابى (المنتقى من الترغيب والترهيب) .

عن أبى موسى ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتـوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل ، حتى تطـلع الشمـس من مغربها » رواه مسلم والنسائى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ الشمس ثم تبتم ؛ لتاب الله عليكم » رواه ابن ماجه بإسناد جيد[٢] .

وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله الإنابة »[٣] رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد [٤] . .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس فى آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع ، فأطعموا طعامكـــم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » رواه ابن حبان فى صحيحه [٥] .

« الآخية » - بمد الهمزة ، وكسر الخاء المعجمة ، بعدها ياء مثناة تحت مشددة - هى : حبل يدفن فى الأرض مثنياً ، ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة ، وقيل : هو عود يعرض فى الحائط تشد إليه الدابة .

---

(١) رواه مسلم عن الأغر المزنى .

(٢) رواه ابن ماجه فى الزهد (٤٢٤٨) وفى الزوائد : هذا إسناد حسن .

(٣) الإنابة : الرجوع ، والمراد إلى الله بالتوبة والاستغفار ونحوهما .

(٤) ووافقه الذهبى (٤ / ٢٤٠) وأورده الهيثمى جزءاً من حديث وقال : رواه أحمد والبزار ، وإسناده حسن (١٠ / ٢٠٣) .

(٥) وهو فى الموارد (٢٤٥١) ورواه أيضًا أحمد وأبو يعلى كما قال الهيثمى ، ورجالهما رجال الصحيح ، غير أبى سليمان الليثى ، وعبد الله بن الوليد التميمى ، وكلاهما ثقة (١٠ / ٢٠١) .

obeikandi.com

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم ، كلهم من رواية على بن مسعدة [1] وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد [2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن عبدًا أصاب ذنباً ، فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر - فقال : ثم أصاب ذنباً آخر فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر - فقال : يا رب ، إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » رواه البخارى ، ومسلم .

قوله : « فليعمل ما شاء » معناه - والله أعلم - : أنه ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ، ولم يَعُد إليه ؛ بدليل قوله : « ثم أصاب ذنباً آخر » فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء ؛ لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره ، لا أنه يذنب الذنب ، فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده ، فإن هذه توبة الكذابين .

وقد تقدم حديث « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها » الحديث .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فإن أصبح ذهبا اتبعناك ، فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «إن ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا ، فمن

---

(١) قال فيه ابن حجر فى (التقريب) : صدوق له أوهام .

(٢) رواه الترمذى فى صفة القيامة (١ ، ٢٥) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٥٢) والحاكم (٤ / ٢٤٤) وقال الذهبى : على لين ، وانتصر ابن القطان للحاكم كما فى (الفيض) (٥ / ١٧) وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٥٤١٥) .

كفر منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة » قال : « باب التوبة والرحمة » رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح [١] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » رواه ابن ماجه، والترمذى، وقال : حديث حسن [٢] .

« يُغَرْغِر » - بغينين معجمتين ، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة - معناه : ما لم تبلغ روحه حلقومه ؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن ماجه ، والطبرانى ، كلاهما من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ، ولم يسمع منه، ورواة الطبرانى رواة الصحيح[٣]، ورواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد : « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه»وقد روى بهذه الزيادة موقوفاً ، ولعله أشبه .

وعن عبد الله بن معقل [٤] قال : دخلت أنا وأبى على ابن مسعود رضى الله عنه ، فقال له أبى : سمعت النبى ﷺ يقول: « الندم توبة » [٥] ؟ قال : نعم . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد [٦] .

---

(١) ونحوه قال الهيثمى (١٠ / ١٩٦) كما رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى (٤ / ٢٤٠) .

(٢) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٣١) وابن ماجه فى الزهد ، وجعله من حديث عبد الله بن عمرو ، كما رواه الحاكم أيضاً وصححه ووافقه الذهبى (٤ / ٢٥٧) وأورده الهيثمى فى المجمع جزءاً من حديث لأحد الصحابة وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الرحمن (بن البيلمانى) وهو ثقة (١٠ / ١٩٧) .

(٣) رواه ابن ماجه فى الزهد (٤٢٥٠) وحسنه ابن حجر ، باعتبار شواهده ، كما فى المقاصد والفيض والكشف وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٣٠٠٨) .

(٤) فى الأصل ، وفى طبعة الشيخ منير ، وكذا فى المستدرك : عبد الله بن مغفل ، وهو غلط ناسخ أو طابع ، والصواب : عبد الله بن معقل (بن مقرِّن المزنى) كما هو واضح من سند الحديث عند أحمد ، فقد رواه فى مسند ابن مسعود برقم (٣٥٦٨) .

(٥) أى الركن الأعظم فى التوبة : الندم ، كما فى حديث : « الحج عرفة » فلا ينفى ذلك وجوب العزم والإقلاع فى تحقق التوبة النصوح .

(٦) ووافقه الذهبى (٤ / ٢٤٣) وفات المنذرى أن ينسبه إلى أحمد ، كما أشرنا ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، كما رواه ابن ماجه أيضاً (٤٢٥٢) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم » [1] . رواه مسلم ، وغيره .

وعن عمران بن الحصين رضى الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ ، وهى حبلى من الزنا ، فقالت : يا رسول الله أصبت حدًّا ، فأقمه علىَّ ، فدعا نبى الله ﷺ وليها ، فقال : « أحسن إليها ، فإذا وضعت فاتنى بها » ، ففعل ، فأمر بها النبى ﷺ ، فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق ، فأتاه ملك الموت [2] فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء

---

(١) ذلك لأن من أسمائه سبحانه (الغفار) فلمن يغفر إذا كان كل عباده معصومين لا يذنبون ؟!! فلا ينبغى لمذنب أن ييئس ، مهما يكن ذنبه كبيرا ، فإن مغفرة الله أكبر منه ، وهو تعالى يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » (الزمر : ٥٣) .

(٢) فى نسخة : « حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت » .

تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما أدنى كان فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» .

وفى رواية : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر ، فجعل من أهلها» .

وفى رواية : « فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى ، وإلى هذه أن تقربى ، وقال : قيسوا بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .

وفى رواية : قال قتادة : قال الحسن : « ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها » رواه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه بنحوه .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول » رواه مسلم ، واللفظ له ، والبخارى بنحوه .

وعن شريح - هو ابن الحارث - قال : سمعت رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقول : قال النبى ﷺ : « قال الله عز وجل : يا بن آدم قم إلىَّ أمش إليك ، وامش إلىَّ أهرول إليك » رواه أحمد بإسناد صحيح (١) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة » رواه البخارى ، ومسلم وقد روياه أيضًا عن ابن مسعود بصيغة أوسع من هذه ، وستأتى فى موضعها .

وعن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وما بقى»رواه الطبرانى بإسناد حسن(٢) .

---

(١) وقال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شريح بن الحارث وهو ثقة (١٠ / ١٩٦ ، ١٩٧) . (٢) وكذا قال الهيثمى (١٠ / ٢٠٢) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى ، فانفكت أخرى ، حتى يخرج إلى الأرض » رواه أحمد ، والطبرانى بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح [١] .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلا أصاب من امرأة قبلة - وفى رواية : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها [٢] ، فأنا هذا ، فاقض فىّ ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك - قال : ولم يرد عليه النبى ﷺ شيئاً ، فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبى ﷺ رجلاً فدعاه ، فتلا عليه هذه الآية : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [٣] ، فقال رجل من القوم : يا نبى الله ، هذا له خاصة ؟ قال : « بل للناس كافة » رواه مسلم ، وغيره .

وعن أبى طويل شطب الممدود أنه أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها ، ولم يترك منها شيئاً ، وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها [٤] ، فهل لذلك من توبة ؟ قال : « فهل أسلمت ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، قال : « تفعل الخيرات ، وتترك السيئات ، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن » قال : وغدراتى وفجراتى ؟! قال : « نعم » قال : الله أكبر ! فما زال يكبر حتى توارى . رواه البزار ، والطبرانى واللفظ له ، وإسناده جيد قوى [٥] .

---

(١) وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى وأحد إسنادى الطبرانى رجاله رجال الصحيح (١٠ / ٢٠١ ، ٢٠٢) .

(٢) « دون أن أمسها » أراد : أصبت منها شيئاً غير الجماع ، وفى نسخة : « أصبت منها دون - إلخ » بغير « ما » .

(٣) هود : ١١٤ .

(٤) الحاجة : أراد به الصغير ، والداجة : أراد به الكبير من الذنوب .

(٥) وقال الهيثمى : (١٠ / ٢٠٢) : رواه الطبرانى والبزار بنحوه ، ورجال البزار رجال الصحيح ، غير محمد بن هارون أبى نشيط ، وهو ثقة .

هل تجب التوبة من الصغائر ؟

وقد أثار العلامة ابن رجب الحنبلى فى كتابه (جامع العلوم والحكم) سؤالا مهما عن صغائر الذنوب :هل تجب التوبة منها كالكبائر أو لا ؟ لأنها تقع مكفرة باجتناب الكبائر ، لقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (١) قال : هذا مما اختلف الناس فيه .

فمنهم من أوجب التوبة منها ، وهو قول أصحابنا وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم .

وقد أمر الله بالتوبة عقيب ذكر الصغائر والكبائر ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وأمر بالتوبة من الصغائر بخصوصها فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا منهُم وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيرًا مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

ومن الناس من لم يُوجب التوبة منها ، وحكى عن طائفة من المعتزلة .

ومن المتأخرين من قال : يجبُ أحد أمرين ، إما التوبة منها ، أو الإتيان ببعض المكفرات للذنوب من الحسنات .

وحكى ابن عطية فى « تفسيره » فى تكفير الصغائر بامتثال الفرائض واجتناب الكبائر قولين :

---

(١) النساء : ٣١ . (٢) النور : ٣٠ - ٣١ . (٣) الحجرات : ١١ .

أحدهما : وحكاه عن جماعة من الفقهاء وأهل الحديث : أنه يقطع بتكفيرها بذلك قطعاً ، لظاهر الآية والحديث .

والثانى : وحكاه عن الأصوليين : أنه لا يُقطع بذلك ، بل يُحمل على غلبة الظن وقوة الرجاء ، وهو فى مشيئة الله عز وجل ، إذ لو قطع بتكفيرها ، لكانت الصغائر فى حكم المباح الذى لا تبعة فيه ، وذلك نقض لِعُرَى الشريعة .

قلت : قد يقال : لا يقطع بتكفيرها ، لأن أحاديث التكفير المطلقة بالأعمال جاءت مقيدة بتحسين العمل ، كما ورد ذلك فى الوضوء والصلاة ، وحينئذ فلا يتحقق وجود حسن العمل الذى يوجب التكفير ، وعلى هذا الاختلاف الذى ذكره ابن عطية ينبنى الاختلاف فى وجوب التوبة من الصغائر [1] . اهـ .

والحق أن التوبة مطلوبة من كل مكلف ، وأن جميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، كما ذكرته الآية الكريمة ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ المُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقد ذكرنا أن هناك من يتوب من الكبائر ، وهناك من يتوب من البدع ، وهناك من يتوب من صغائر الذنوب ، ومن يتوب من الشبهات .

وهناك من يتوب من الغفلات .

وهناك من يتوب من الحالة التى كان عليها إذا ترقى إلى حال أحسن ، وهذه هى توبة النبى ﷺ الذى كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

* * *

(١) جامع العلوم والحكم : ١ / ٤٤٦ ، ٤٤٧ - طبعة مؤسسة الرسالة بيروت .

وجوب التوبة على الفور :

وإذا كانت التوبة واجبة على المؤمنين جميعا، فإن الإتيان بها على الفور: واجب آخر، فلا يجوز تأخيرها ولا التسويف بها، فإن ذلك خطر على قلب المتدين، إذا لم يسارع بالتطهر أولا بأول، فيخشى أن تتراكم آثار الذنوب، واحدا بعد الآخر، حتى تحدث سوادا فى القلب، أو زيفا فيه. كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة .

عن النبى ﷺ قال :

« إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبة نكتة فإن هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذاك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿كَلاَّ بَل رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1] .

وقال ابن القيم :

المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، فمتى أخرها عصى بالتأخير ، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى ، وهى توبته من تأخير التوبة ! وقل أن تخطر هذه ببال التائب ، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شىء آخر ، وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة . ا . هـ .

وأخطر شىء على من وقع فى المعصية هو : التسويف بمعنى أن يقول : سوف أرجع ، سوف أتوب ، ولا يفعل ، ولهذا قيل : (سوف) جند من جنود إبليس ! وقيل : أكثر أهل النار المسوفون . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ

---

(١) رواه الترمذى (٣٣٣١) وقال : حسن صحيح ، وكذلك النسائى ، وابن ماجه (٤٢٤٤) وابن حبان فى صحيحه كما فى الموارد (٢٤٤٨) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى (٢ / ٥١٧) ، والآية من سورة المطففين : ١٤

رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ومن فضائل المبادرة : أنها تعين المكلف على اقتلاع الذنب قبل أن يستفحل ، ويرسخ فى أرض القلب أصله ، وتنتشر فى الأعمال فروعه ، ويزداد كل يوم تشبثا بالجذور ، وتشعبا فى الفروع .

وما مثل المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة ، فرآها قوية ، لا تنقلع إلا بمشقة شديدة جلية ، فقال : أدخرها سنة ، ثم أعود لأقتلعها ، وهذا من حماقته وغبائه ، فهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ! فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز - مع قوته - عن مقاومة ضعيف ، فكيف ينتظر الغلبة عليه ، إذا ضعف هو فى نفسه ، وقوى الضعيف ؟! .

وكثيرا ما يسوف المسوفون ، حتى يأتى الوقت الذى ترفض فيه التوبة ، ولا يقبلها الله تعالى ، وذلك حين يفقد الإنسان الاختيار ، وتكون توبته توبة اضطرار ، مثل توبة فرعون حينما أدركه الغرق ، فقال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، فكان الرد الإلهى : ﴿ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وإذا وصل المكلف إلى وقت معاينة الموت وحضوره فهنا لا تنفعه توبة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُوْلَئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٣) .

* * *

(١) المنافقون : ٩ - ١١ . (٢) يونس : ٩١ . (٣) النساء : ١٧ ، ١٨ .